بسم الله الرحمن الرحيم

[تفريغ المجلس ٢٩]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا- أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

كنا شرعنا يوم أمس في شرح والتعليق على حديث النبي ﷺ وهو الحديث الثامن عشر مما ذكره الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب الأربعين.

الحديث الثامن عشر

عَنْ أَبِي ذَرٍّ جُنْدُبِ بن جُنادةَ وَأَبِي عبد الرحمن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ، وفي بعضِ النُّسَخِ: حسنٌ صحيح. رَوَاهُ الترمذي برقم:٢١٠٢.

[شمول الحديث لمعاملة العبد مع ربه، ونفسه، وغيره]

وشرحنا قول النبي ﷺ (اتق الله حيثما كنت) قال بعد ذلك (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) هذا الحديث تضمن ثلاثة أشطر -ثلاث جمل- الجملة الأولى (اتق الله حيثما كنت) كأن فيها معاملة الإنسان لربه ﷻ، وقوله (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) معاملة الإنسان لنفسه، (وخالق الناس بخلق حسن) معاملة الإنسان لغيره، ففيه ثلاثة أقسام.

والإنسان في هذه الدنيا هذه هي معاملته، أن يعامل ربه ﷻ، يعامله بالتقوى وخشيته والخشوع منه، وإجلاله وتعظيمه، ومحبته والخضوع له، والإذعان، والانقياد لأمره ونهيه، وأن يعامل نفسه، ينجو بنفسه، وأن يعامل سائر الناس، وإن كان التقوى كلمة ووصية جامعة، تجمع الأمور الثلاثة.

[حقيقة السيئة وبيان إطلاقاتها]

فقوله ﷺ (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) السيئة من السوء، والسيء أو السوء هو ما ثبت شرعا وصفه بذلك، وأيضا كل ما وصفه الشرع ووسمه بأنه سيء فإنه سيء، والمراد من (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) السيئة هاهنا ما جاء في الشرع بيان أنه من السيئات﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾غافر، فهذه حقيقة السيئة، وهي إشارة إلى الاثم والذنب، فتعم كل ما يخالف الشرع، كترك الواجبات، أو فعل المحرمات، وقد يلحق بها كذلك الاستخفاف والإكثار والمتابعة على المكروهات، فهذا هو المراد.

(وأتبع السيئة) السيئة إشارة إلى الذنب والإثم، وإنما يترتب الإثم والذنب على ترك الواجب أو فعل الحرام، على ترك ما أمر به أو فعل ما نهي عنه، هذه حقيقة السيئة.

وتطلق السيئة على الكفر، كما قال ﷻ ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾البقرة، فتطلق السيئة على الكفر، وتطلق على الذنوب الكبائر والصغائر، وتطلق على الذنوب الكبائر والصغائر.

وليس الأمر هاهنا في بيان المسألة المطروحة عند علماء الأصول في قضية التحسين والتقبيح، هل الحسن ما حسنه الشرع والقبح ما قبحه الشرع فقط؟ أو يدخل العقل في ذلك، فهذه المسألة ليس المقصود ذكرها هنا، وإنما المراد بيان السيئة، وأنها الإثم والذنب، فهي تشمل ترك الأمر وارتكاب النهي.

[الحسنات يذهبن السيئات]

وهذا فيه إشارة إلى حقيقة الإنسان، وأنه لا يخلو من الخطأ، فأمر النبي ﷺ بتقوى الله ﷻ وهي الكلمة الجامعة لفعل الأوامر واجتناب النواهي، ولكن الإنسان لا يخلو من الخطأ، لا يخلو من التقصير، قد

تزل به القدم، وقد يأخذ منه الشيطان، وينزغ منه إبليس شيئا، فيوقعه فليبادر إلى محو تلك السيئة، فالترتيب في الحديث إشارة إلى ما يلزم أن يكون عليه الإنسان وهو تقوى الله ﷿ بفعل الأمر وترك النهي، والمداومة على ذلك غاية الكمال.

فلربما يقول الإنسان إذا وقع منه الخطأ: ذهب تقواه بالكلية، فيبين لنا الحديث أن الإنسان المؤمن يبدو منه الخطأ، لكن يستدركه، ولا تفوته بذلك التقوى التي هو عليها، فإذا وقع منه الخطأ بادر إلى إصلاحه، ويصلحه بالحسنة.

[التوبة من أجلّ الحسنات]

(وأتبع السيئة الحسنة تمحها)، المراد بالحسنة هاهنا أحد أمرين، وكل منهما وارد لوجود ما يدل عليه:

١= إما المراد بالحسنة التوبة، والتوبة تمحو السيئات، والله ﷻ قد أمر بالتوبة، وفرضها، وألزم بها، وهي من الفرائض في قول جمهور العلماء، بل أجمعت الأمة على أن التوبة واجبة، وأنها من الفرائض أمر بها ﷻ في غيرما آية ﴿...وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ النور، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ...٨﴾ التحريم، وقال ﷻ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠﴾ الفرقان، وقال ﷻ ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ٧١﴾ الفرقان، وقال ﷻ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾ طه، وقال ﷻ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٨٩﴾ آل عمران، وقال ﷻ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ البقرة، وقال ﷻ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ التوبة،

وقال ﷻ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾التوبة، وقال ﷻ ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾آل عمران. فمن تاب تاب الله عليه.

[هل يُقطع بقبول التوبة]

(وأتبع السيئة الحسنة تمحها) المراد بالحسنة التوبة، وهل يُقطع بقبول التوبة؟ بعض العلماء قالوا: لا يقطع، فمن وقع في السيئة يتوب إلى الله ﷻ وتوبته أمرها إلى الله، قد يقبلها، وقد لا يقبلها، بحسب استجماع شروطها، لا يستطيع أحد أن يقطع بأنه جمع شروطها، وبعض العلماء قال بأن التوبة مقبولة عند الله ﷻ، من تاب توبة نصوحا صادقة، وجمع شروطها، والله تبارك وتعالى قد ذكر في كتابه أن من تاب فإن الله غفور رحيم، وأن من تاب تاب الله عليه كما جاء في بعض الآثار، وفي بعضها أيضا (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[1] ولذلك فمن استجمع شروط التوبة فيرجى له تكفير الذنب، والمغفرة والعفو، والمحو، وإزالة وإزاحة السيئات.

[شروط التوبة]

وشروط التوبة كما ذكرنا غير مرة، إن كانت السيئة ما بين العبد وربه، فشروط التوبة ثلاثة:

أ= أولها الندم على الفعل، وفي الحديث الذي حسنه بعض العلماء قوله ﷺ (الندم توبة)[2].

ب= ومن شروطها أيضا الإقلاع عن الذنب، وأن لا يصر عليه، ولهذا قال ﷻ ﴿..وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾آل عمران.

---

[1] أخرجه ابن ماجة(٤٢٥٠)،والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٠٢٨١)، والقضاعي في ((مسند الشهاب)) (١٠٨)
[2] أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢)، وأحمد (٣٥٦٨)

ج- والشرط الثالث الاستغفار منها مع العزم على عدم الرجوع، كما قال ﷻ ﴿...ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ ..١٣٥﴾آل عمران.

فإن كانت السيئة بين العبد والعبد، بأن يكون أخذ حق غيره، فشروط التوبة الثلاثة السابقة يضاف إليها رد الحق لأهله، إن أخذ مالا رده، إن شتم إنسانا تحلل منه، بأن يخبره، وإن خشي أن يفسد ما بينه وبينه فليكثر له من الدعاء، وليرسل له بواسطة: أن هناك من تكلم فيك، وهو يستسمحك، وإن كان ظلم إنسانا رد المظلمة، وإن خدعه فيه أو ما خانه فيه، أو ما لم يؤد فيه أمانته، ونحو ذلك.

فقوله (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) يراد بالحسنة التوبة وهي تمحو السيئة كما ذكرنا في هذه النصوص، وقد قال ﷻ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ...٤٨﴾النساء، فبالتوبة أيضا يغفر ﷻ، وقال ﷻ ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥﴾الزمر، فقوله (وَأَنِيبُوٓاْ)، الإنابة الرجوع، (وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ) أن تسلم نفسك، أن تقود نفسك وتعطيها لله ﷻ، فتتوب من الأفعال السيئة.

[إطلاق الحسنة على العمل الصالح]

٢- ويحتمل المراد بالحسنة: أي العمل الصالح، لأن الله ﷻ يثيب على العمل الصالح، وكون العمل الصالح يكفر به ﷻ الذنوب، قد تكاثرت في ذلك النصوص من الآيات والأحاديث، فمن الآيات قوله ﷻ في سورة آل عمران التي سبق ذكرها ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾آل عمران، وقال ﷻ ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا

يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ المؤمنون، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ الفرقان، ﴿...وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ القصص، فكل هذه النصوص تدل على أن العمل الصالح يكفر الذنوب. (وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) وإن كان بعض أهل العلم يحملها على معنى: إذا أسيء إليك فلا ترد بالسيئة، وإنما ترد بالحسنة، ولكن يدخل فيه هذا المعنى، وهو أنه إذا وقع في السيئة درأها وردها بالحسنة يعملها على إثرها.

[بيان ماء جاء في السنة من تكفير السيئات بالحسنات]

وأما الأحاديث فكثيرة، يقول ﷺ (أرأيت لو أن بباب أحدكم نهرا، يغتسل فيه في اليوم والليلة خمس مرات، أيبقى من درنه شيء؟) قالوا: لا يا رسول الله، قال (كذلك الصلوات الخمس مكفرات لما بينها ما اجتنبت الكبائر)[1] كلما صلى الصلاة كفرت له الذنوب.

وقال ﷺ (أو لا أدلكم على ما يرفع الله به الدرجات، ويمحو به الخطايا؟) قالوا: بلى يا رسول الله قال (إسباغ الوضوء على المكاره، ونقل الأقدام إلى الصلوات، وانتظار الصلاة إلى الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط)[2]، وقال ﷺ وكان قد توضأ (من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، إلا غرفت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر) أو قال (إلا غفر الله ما تقدم من ذنبه)[3] وقال ﷺ (إذا توضأ أحدكم فأحسن وضوءه، ثم خرج أتى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة، فله بكل خطوة يخطوها رفع درجة، وحط خطيئة، حتى يأتي الصلاة، ولا يزال في صلاة ما دام في مصلاه، ولا تزال الملائكة تدعو له، وتصلي عليه: اللَّهُمَّ اغفر له، اللَّهُمَّ ارحمه، ما لم يحدث أو يخرج)[4] -يعود-، وقال ﷺ (إذا توضأ أحدكم فغسل يديه خرجت معها ما اقترفته يداه من الخطايا مع آخر قطر الماء،

---

[1] أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧)
[2] أخرجه مسلم (٢٥١). ومالك في ((الموطأ)) (صـ ١٦١)
[3] أخرجه البخاري (١٩٣٤)، ومسلم (٢٢٦).
[4] أخرجه البخاري (٦٤٧)، ومسلم (٦٤٩).

فإذا غسل وجهه خرجت منه خطاياه التي نظر إليها ببصره مع آخر قطر الماء..)[1] وهكذا في سائر الأعضاء، في سمعه ونحوه.

وقال ﷺ (الصلوات إلى الصلوات، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان) وفي أحاديث أخرى (العمرة إلى العمرة، والحج إلى الحج مكفرات لما بينهما ما اجتنبت الكبائر)[2]، وقال ﷺ (من صام عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية)[3] وقال (صوم يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والسنة الباقية[4])، وقال ﷺ (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)[5]، والأحاديث في هذا الباب كثيرة في بيان فضل الأعمال الصالحة، وأنها تكفّر الخطايا، وتكفر الذنوب، والسيئات، والمعاصي، فهذا أيضا داخل وارد في الحديث (**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**).

[هل يكفر العملُ الصالح الكبائرَ]

لكن اختلف العلماء هل هذه الأعمال الصالحة تكفر سائر المعاصي، سواء الكبائر والصغائر؟ أو أنها تكفر الصغائر فقط؟ وتكفيرها للصغائر هل هو بشرط اجتناب الكبائر؟ أو بغير هذا الشرط؟

١= فمن العلماء من أخذ بظاهر الحديث وقال: إن الأعمال الصالحة تكفر جميع المعاصي، سواء ماكان منها من لصغائر أو الكبائر، وهو قول يعزى لابن حزم، وأخذ به بعض أهل العلم، وهو قول فيه نظر، ولا يسلّم على إطلاقه، فأهل هذا القول يرون أن العمل الصالح يكفر حتى الكبائر ولو لم يتب صاحبها منها، وفيه بعد.

٢= ومن العلماء من يرى أن هذه الأعمال الصالحة تكفر الصغائر دون الكبائر، سواء ارتكب الكبيرة أو لا، لدلالة ظاهر الأحاديث على ذلك.

٣= ومن العلماء من قيد بأن الصغائر تكفرها الأعمال الصالحة إذا اجتنبت الكبائر، لقوله ﷻ ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ.. ﴿٣١﴾﴾النساء.

[1] نحوه أخرجه مسلم (٢٤٤).
[2] أخرجه مسلم (٢٣٣).
[3] أخرجه مسلم (١١٦٢).
[4] أخرجه مسلم (١١٦٢)..
[5] أخرجه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠)، والنسائي (٢٦٢٧)، وابن ماجه (٢٨٨٩)، وأحمد (٩٣١١).

ولعل الأقرب في الجمع بين مجموع الأدلة التي جاءت أن الواجب والأصل في الكبائر التوبة منها، أن يتوب صاحبها منها، فلا تكفّر له، ولا تغفر له، ولا تمحى عنه إلا بالتوبة منها، لأنها كبائر عظائم، وهذا يكاد يتفق عليه أكثر العلماء، وجمهورهم.

فكما أن الكبيرة تكفرها الحدود على الصحيح، فإذا أقيم عليه الحد فقد كفّرت عنه كبيرته، لكن إذا لم يقم عليه الحد فلا بد له من توبة يتوب بها، لتكفر عنه -بشرطها- وعليه فالأحاديث الأخرى تحمل على أن الأعمال الصالحة تكفر المعاصي أي الصغائر، لأن الأحاديث جاءت مقيدة، (مكفرات بينهما ما اجتنبت الكبائر) بمعنى إلا الكبائر، أي أن الأعمال الصالحة تكفر المعاصي الصغائر دون الكبائر، وليس على معنى أنها لا تكفر الصغائر إلا إذا اجتنبت الكبائر.

لكن بعض الأحاديث صريحة في أن تلك الأعمال الصالحة تكفر حتى الكبائر، كحديث النبي ﷺ (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) يعني صافيا خاليا من الذنوب، إن كان حج حقيقة حجا مبرورا.

وفي بعض الأعمال أنها تكفر ذنوب الإنسان وإن كان فارا من الزحف، والفرار من الزحف قد عده النبي ﷺ من الكبائر، فبعض الأعمال التي جاء النص فيها على أن هذا الفعل يكفر كل الذنوب، تعم الكبائر، وما جاء غير صريح أو جاء مقيدا، فنقيده بأن التكفير إنما يكون للصغائر دون الكبائر.

ولا شك أن الإنسان إذا اجتنب الكبائر فهو أحسن حالا من الذي يسرف على نفسه بالكبائر، ثم يطمع بأن يكفّر عنه بالعمل الصالح عن سيئاته، ولهذا ينبغي على الإنسان أن يجتنب، ويجب عليه اجتناب المعصية، كبيرها وصغيرها، وأن يكون في منأى عن الكبائر فإن وقعت منه الصغيرة كُفرت له بالعمل الصالح.

فهتان مسألتان في قضية التوبة: واجبة في الكبائر، وأن الكبائر لا تكفر بالأعمال الصالحة، وإنما تكفر بالتوبة، وأن من الأعمال الصالحة ما يكفر الكبائر، والأحاديث التي جاءت في الأعمال الصالحة أنها تمحو الخطايا المراد بها الصغائر، على التفصيل الذي ذكرناه.

مسألة أخرى يذكرها أهل العلم، وهي: هل الصغائر لا تكفّر إلا بالتوبة؟ وهل يجب التوبة من الصغائر؟ نعم، يجب أن يتوب من الصغائر، لأن التوبة فرض من الفرائض، وواجب حتمي، ولابد منه، ولكن إن لم يتب فالعمل الصالح يكفر عن ذلك، بشرط أن لا يكون مصرا على المعصية، لأن الإصرار قد يُعظم من هذه الصغيرة، لأن الإصرار فيه ما يدل على الاستهتار والاستخفاف، وهذا شأنه عظيم.

فهذا معنى قوله ﷺ (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) فالحسنة هي التوبة أو يقال أيضا الحسنة هي العمل الصالح، وهل يكفر العمل الصالح الصغائر فقط دون الكبائر؟ أو جميعها؟ على التفصيل الذي ذكرناه.

فهذا ما يتعلق بمعاملة الإنسان لنفسه.

[حقيقة الخُلق]

قال (وخالق الناس بخلق حسن) وهذا فيه معاملة الإنسان للناس، قال بعض العلماء: قد يظن بعض الناس أن التقوى إنما هي في مراعاة حقوق الله ﷻ، ويهمل حقوق الناس، فتجده يعتدي على هذا ويظلم هذا ويسب هذا ويشتم هذا ويفعل ويفعل، فأشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى (وخالق الناس بخلق حسن).

والخُلق بالضم أصله من الخِلقة، والخليقة، والمراد بها الجبلة، والفطرة والسجية، هذا أصل الخُلق، فطرة وطبيعة، وجبلة، وحقيقة الخلق: هي الصورة الباطنة للنفس وما فيها من المعاني والأوصاف، كما أن الإنسان له صورة ظاهرة، تشمل أوصافا وأعضاء.

فالنفس لها صورة باطنة، بأوصافها ومعانيها وما تحويه هي حقيقة الخُلق، ولهذا قال بعض العلماء **(الخلق هيئة راسخة في النفس، تحمل صاحبها على فعل أعمال وأفعال، من غير فكر ولا روية، بل بسهولة ويسر، فإن كانت حسنة مستملحة عقلا وشرعا، فهذه من الأخلاق الحسنة، وإن كانت مقبّحة فهي من الأخلاق القبيحة)** ويطلق الخلق على معنيين:

١= المعنى الأول هو ما ذكرته في هذا التعريف.

٢= والمعنى الثاني ما هو أعم، والمراد به ملازمة، وامتثال أحكام الشريعة.

فالمعنى الأول مثلا قول النبي ﷺ لقيس بن الأشج (إن فيك لخلقان يحبهما الله ورسوله) فقال (أجبلني الله عليهما أم اكتسبتهما؟) قال (بل جبلك الله عليهما: الحلم والأناة)[1] وهو حديث صحيح، فهذا من المعنى الأول، وهو الهيئة الراسخة في النفس.

ومن المعنى الثاني قوله ﷺ (البر حسن الخلق)[2] فهذا يشمل كل الأعمال الصالحة، والامتثال بالشريعة، وكذا قول عائشة رضي الله عنها في النبي ﷺ (كان خلقه القرآن)[3] أي كما قال الحافظ ابن كثير: الامتثال به، والائتمار والانتهاء، والسير حيث أمر ونهى، والكون والكينونة حيث ألزم بأن يكون، والابتعاد عما ألزم أن يبتعد عنه.

[فضل الخلق الحسن]

وحقيقة الخلق كف الأذى، وبذل الندى، وطلاقة الوجه مع الناس، وحقيقة حسن الخلق أن لا يغضب وأن لا يحتد -كما قال الإمام أحمد- وحقيقة حسن الخلق الكرم، والبذل، والعطاء، وأيضا حقيقة حسن الخلق طلاقة الوجه والبشاشة مع الناس، هذه حقيقة حسن الخلق، قال ﷺ (وخالق الناس بخلق حسن) أي عاملهم بالأخلاق الحسنة وكما قال النبي ﷺ (ولتأتك منيتك وأنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتؤتي الناس مثلما تحب أن تؤتى)[4] وتعامل به، هذه حقيقة حسن الخلق، وأجره وفضله عظيم.

قال ﷺ (أقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم خلقا)[5] وقال ﷺ (إن الرجل ليبلغ بحسن الخلق درجة الصائم القائم)[6] وقال ﷺ أيضا لما سئل عن العمل قال (تقوى الله وحسن الخلق)[7] والله ﷻ أثنى على نبيه فقال ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾القلم، فحسن الخلق فضله وأجره عند الله ﷻ عظيم جدا.

---

[1] أخرجه أبو داود (٥٢٢٥)، وأحمد كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (٩/٥)، وابن أبي عاصم في ((الآحاد والمثاني)) (١٦٨٤).
[2] أخرجه مسلم (٢٥٥٣).
[3] أخرجه البخاري في ((الأدب المفرد)) (٣٠٨).
[4] نحوه أخرجه أحمد (١٦٧٥١).
[5] أخرجه أحمد (٦٧٣٥)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٢٧٢).
[6] أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، وأحمد (٢٥٠١٣).
[7] أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وأحمد (٩٠٨٥).

وما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق، قال ﷺ (أثقل شيء في الميزان حسن الخلق)[1] ولهذا فمن أسباب زيادة الإيمان الخلق الحسن، وجاء في ذلك أثر رواه محمد بن مسلم المروزي في أن كون الإنسان قد يفوته شيء من حسن الخلق فيضعف بذلك إيمانه، وفي سنده مقال.

(وخالق الناس بخلق حسن) أي عاملهم معاملة حسنة، وعاملهم بخلق حسن.

[أقسام الأخلاق]

وهذه الأخلاق على قسمين -جبلية ومكتسبة-:

١= فالجبلية مفطور عليها الإنسان، فطره الله عليها، وهذه تختلف من شخص لآخر، ذلك أن أصل خلقة الإنسان من طين، والله ﷻ خلق أبانا آدم من جميع أنواع التراب، وتعلمون اختلاف التراب في خصائصه، منه اللين ومنه اليابس، منه ما هو مرن، يعني يُعوّج كما تشاء، ومنه ما لا يمكن أن يحنى، بل يكسر، منه ما فيه شدة ومنه ما فيه صلابة، ومنه ما فيه رخاوة، منه ما يمسك القوة، ومنه ما لا يمسكها، وهكذا.

فالطينة تختلف أنواعها، والبشر بحسب ما أصيب من أنواع تلك الطينة، كلنا لآدم وآدم من تراب، والله ﷻ خلق آدم من جميع أنواع التراب، فلربما الشخص سرى إليه أنواع دون أنواع، ولذلك ترى في الناس الشديد واللين، والمتين والمتراخي، والمعاند والمسترسل، والحقود وغيره، والمتساهل والمتصلب المتعسر، ونحو هذا، ولذلك تجد طباع الناس تختلف، أحدهم عنده حدة، والآخر على غير ذلك بحسب ما انتهى إليه من هذه الطينة، فيكون قد جُبل على الشيء، مجموعة من الأخلاق، فهذه أخلاق جبلية كما قال ﷺ (فيك خلقان يحبهما الله ورسوله) وقال (بل جبلك الله عليهما)، قال (**الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله**).

[1] أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، وأحمد (٢٧٥١٧) مختصراً، والترمذي (٢٠٠٣).

فهذا الخلق الجبلي وهو على قسمين: منه الحسن ومنه السيء، فالحسن يبقيه الإنسان، والسيء يروض نفسه على تغييره، ولهذا قال النبي ﷺ (ومن يتصبر يصبره الله)[1] من يتعلم يعلمه الله، (وإنما الحلم بالتحلم، وإنما الصبر بالتصبر، وإنما العلم بالتعلم)[2].

فإذن دليل على أن من الخلق ما هو جبلي، ومنه ما كسبي -والقسم الثاني- الكسبي الذي يكتسبه الإنسان بالترويض، رياضة نفسه على هذا الخلق، يحاول أن يحمل نفسه على هذا الخلق الحسن، إنسان شديد الغضب، شديد الاعتداء، شديد المعاملة، صلب، عسر، لا حلم عنده، لا يصبر، لا يعفو، يحمل نفسه على الخلق الحسن بالترويض، برياضة نفسه على ذلك.

فالخلق على قسمين: جبلي يحمد العبد ربه على ما جبله عليه من خلق حسن، ويجتهد في تغيير الخلق السيء، والكسبي هو الذي يسعى لتحصيله، التواضع الحلم العفو الرأفة، اللطف، الصبر، البشاشة، طلاقة الوجه، حسن الكلام، الكلمة الطيبة، الإعانة، العطاء، بذل الندى، كف الأذى، التواضع، الرحمة، الإيثار، التغافل، التطاوع، العفة، الحشمة، الحياء، خفض الجناح ...الخ، يروض نفسه ليحصل عليها.

[كيف يروض الإنسان نفسه على حسن الخلق؟]

كيف يروض نفسه؟ بأمور:

١= أولها معرفته بربه ﷻ، وتعلمه لأسمائه الحسنى وصفاته العلا، ومن عرف ربه عرف قدر نفسه، فيحمله ذلك على حسن الخلق، وقد كان النبي ﷺ خلقه القرآن.

٢= ثانيا أن يدعو الله ﷻ أن يجمله بأحسن الأخلاق، وكان من دعائه ﷺ (اللَّهُمَّ اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، وجنبنا مساوئ الأخلاق لا يجنب مساوئها إلا أنت)[3].

٣= أن يعرف ويقرأ فضل هذه الأخلاق الحسنة.

٤= أن يلازم أهل الفضل وأهل الصلاح وأصحاب الأخلاق الحسنة، ليكتسب منهم.

---

[1] أخرجه البخاري (١٤٦٩).
[2] السلسلة الصحيحة (٣٤٢).
[3] صحيح مسلم (٧٧١).

٥= أن يجعل له من الزملاء، والأصحاب، والأقران من يصدق في نصيحته، بحيث إذا رأى منه ما يسوء بينه له.

٦= أن يعلم حقيقة هذا الخلق، ويجاهد نفسه عليه.

٧= أن يقرأ في سير الأئمة الأخيار، وعلى رأسهم سيرة النبي ﷺ، ومن بعد ذلك سير الصحابة الكرام عليهم الرضوان.

فبهذا يروض نفسه على الخلق الحسن، ويوفّق بذلك بإذن الله ﷻ.

والأخلاق كثيرة، من العلماء من يجعلها على أصول، وفروع، وعددها كثير، وكتاب الله ﷻ طافح وملىء بهذه الأخلاق، كالعفو والإحسان، والصفح، واللطف، والرحمة، والتجاوز، والسماحة، ونحوها، الآداب في هذا الباب كثيرة جدا، فينبغي للإنسان أن تكون له قراءة في كتاب الله ﷻ، قراءة تدبر وفهم وتمعن، يستشف ويستفيد منها الأخلاق العظيمة التي يحمل نفسه عليها.

هذا والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وآله وصحبه أجميعن.